## المحاضرة الرابعة

## ( نثر ابن الخطيب )

أثنى مؤرخو الأدب على نثر ابن الخطيب كما أثنوا على شعره ، فقد أعجب المقري به فقال : "أما نثره فهو البحر الزخار ، بل الدر الذي به الافتخار " .

إن النثر التأليفي عنده من أبرز أنماط النثر ، وذلك يتجلى في مقدمات كتبه ، ومن ذلك ما ثبته في كتاب ( تلخيص الذهب ) المرفوع إلى خزانة السلطان المجاهد أبي الحجاج بن نصر : " أما بعد حمد الله الذي قصر وصف الكمال المحض على ذاته ، وجعل الألسن تتفاوت في رتب البيان ودرجاته والثناء عليه " .

إن أكثر رسائل ابن الخطيب كانت سلطانية أو ديوانية ، وقد أنكر عدد من الدارسين على ابن الخطيب ميله الشديد إلى السجع المتكلف ، ومن هؤلاء أحمد ضيف الذي حدد أبرز خصيصتين ، "" وكان قدر الكتابة عنده في الإكثار لا في الإجادة أو أن الإجادة كانت لا تفارق الإطالة لديه ، فكانت كتاباته لا تخلو من مللين : ملل الإطالة وملل السجع . وربما كان أعظم عيب في أسلوب ابن الخطيب تلك الإطالة المملة والسجع المتكلف " .

أما نظرة الدكتور مصطفى الشكعة فتأتي أكثر واقعية من نظرة سلفه أحمد ضيف ، فقد وجد رسائل ابن الخطيب منسجمة مع عصرها ، بل أشار إلى أنها كانت مصرة على السير في ركاب قرينتها المشرقية واقتفاء أثرها ؛ وذلك لأن الكاتب كان خاضعا لمواضعات عصره من الاعتناء بالمحسنات البديعية ، مستجيبا للذوق السائد في ذلك العصر مواكبا لأساليب النثر المشهورة ، وفي مقدمتها طريقة القاضي الفاضل .

ويشير الدكتور مصطفى الشكعة إلى أن ابن الخطيب بالغ في استعماله الألقاب السلطانية في رسائله حتى أنها أوشكت أن تبلغ مائة لقب وصفة .

ومن التحميدات أتى الكاتب بأربع وعشرين سجعة على حرف واحد ، وهو أمر إذا جازه الشعر فإن النثر لا يستسيغه . فإذا ما نوع الكاتب في سجعه وبدل في جرسه كان ميسرا على قارئه غير مثقل على سمعه .

أما شاعريته فقد أشاد الباحثون بشاعريته قديما وحديثا حيث تناولت أشعاره أكثر موضوعات الشعر التقليدية ، فنظم القصيدة السياسية في باب المديح ، كما نظم في الغزل والزهد والتصوف والمديح النبوي ، وكانت له مساهمات واسعة في ميدان التوشيح والغزل .

أما مصنفاته فقد أشار إليها المقري في قوله :

**تصانيف الوزير ابن الخطيب ألذ من الصبا الغض الرطيب**

**فأية راحة ونعيم عيش توازي كتبه أم أي طيب**

واستحسن عباس المراكشي البيتين اللذين أوردهما المقري فذيلهما معربا عن إعجابه بالجانب الأدبي من ابن الخطيب فقال :

**وما زين الشباب وأنت تجري مع الأحباب في لهو وطيب**

**ووصل من حبيب بعد هجر بأحلى من كلام ابن الخطيب**

وتغلب مسحة دينية على أشعاره فنتعرف على رجل ورع يميل إلى التصوف ويتضرع إلى الله كما يتشوق إلى لقائه :

**جلى الحق قلبي حتى أنارا فأنست من جانب الطور نارا**

**وحققت آنيتي وهي كنز فأخرجته إذ هدمت الجدارا**

**وأبصرت رسمي رسما محيلا وأبصرت وصفي وصفا معارا**

**فمهما نطقت نطقت أدكارا ومهما صمت صمت اعتبارا**